

المصطلح النقدي على عهد دولة بني حماد

د. أحمد طالب

جامعة تلمسان

بعد الدولة الحمادية من أهم الدول الجزائرية التي اشتهرت بألوان المعارف ، بحيث ازدهرت في هذه المرحلة بشتى العلوم . ومنها الأدب الذي هو مجال حديثنا . وقبل الحديث عن هذا الموضوع فلا بد من لمحة تاريخية حول دولة بني حماد وتشجيعها للأدباء والشعراء والعلماء في جميع المجالات بصفة عامة . تعتبر الدولة الحمادية دولة ملوكية يتولى ملوكها الحكم بالوراثة . وكان ولاءهم السياسي مرة للفاطميين ، ومرة أخرى للعباسيين ، مسايرين في ذلك مصالحهم الاستراتيجية ، بالإضافة إلى مراعاة أحوال العصر والتاريخ . ومن المعروف أن عاصمتهم في ذلك الوقت ، هي " القلعة " ثم تحولت إلى " بجاية " في سنة 460 هـ . وكان من الأسباب التي دفعتهم لتأسيس العاصمة الجديدة هي الهجمات التي كانوا يتعرضون لها من طرف قبائل بني هلال .

وكان ملوك بني هلال من العظماء اهتموا بمشاغل شعوبهم ، باهتمامهم باستقرار الأمن ، وضمان القوات اليومية بالاهتمام بالفلاحة والزراعة وال عمران ، كما قربوا إليهم الأدباء والشعراء ورجال العلم والفكر .

ومما يعاب عليهم وعلى بقية الدويلات الإسلامية ، التي تعاقبت على المغرب العربي — حسب المؤرخين — هو التعصب القبلي الأعمى . الذي كان سببا في كثير من الحروب والنزعات التي لم تكن لصالح المسلمين إطلاقا ، بل كانت لصالح أعدائهم .

كان حماد بن بلكين (405 هـ - 419 هـ) كما يقول عنه لسان الدين بن خطيب ، في الأعلام " نسيج وحده وفريد دهره ، وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا ، وقد قرأ الفقه بالقيروان ونظر في كتب الجدال... " ¹

كذلك وجدنا الذين اهتموا بالأدب والشعر من ملوك بني عبد الواد الناصر بن علناس (454 هـ - 481 هـ) و هو يعد خامس ملوك بني حماد ² كان شجاعا إذ قهر الأعداء وهزمهم شر هزيمة ، كما أنه كان جوادا معطاء لقد بلغ نفوده ورجلان "ورقلة" حاليا . مع العلم أنه الذي بنى مدينة بجاية .

لقد قال عنه العالم الاجتماعي والمؤرخ ، عبد الرحمن بن خلدون " بلغت جنوده إلى وركلان و
 ولى عليها ، وأخضع بسكرة ونواحيها ، وأسس بجاية سنة 460 هـ وبني بها قصر اللؤلؤة وكان أعجب
 قصور الدنيا ، ونقل الناس إلى بجاية وأسقط الخراج عنهم." ³
 والشيء الذي يذكره المؤرخون ، هو أن ازدهار الدولة الحمادية كان على يد الناصر . فمن أعماله
 الكبيرة، هو رد هجوم الهلاليين وعز الحماديين ورفع شأنهم وأسس ملكهم ، إذ عم الأمن والأمان وعم
 الرخاء ، فهو الذي أسس بجاية خوفا من هجمات الهلاليين على الدولة . وكان ذلك بإعاز من وزيره ابن
 بليغ . بنى هذه المدينة على أنقاض مدينة "صلدي" الفينيقيّة . والرومانية وكانت أهم مدن نوميديا في
 القديم.

كان الناصر محبا للفنون والعمارة، إذ شيد القصور و قرب إليه جمع العلماء والأدباء والشعراء
 والفنانين. وجعلهم من خاصته الذين لا يفارقونه ، ومن قربه إليه الشاعر ابن كفاء القيرواني الذي قال فيه :

قالت سعاد وقد زمت ركانبها
 مهلا عليك فأنت الرائح الغادي
 فقلت ت الله لا انفك ذا سفر
 يجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
 حتى أقبل ترب العز منتصرا
 بالناصر بن علناس بن حماد

ومن الشعراء الذين تغنوا بالدولة الحمادية هو : الشاعر بن حمديس الذي صور الحضارة الحمادية
 العريقة . إذ بلغت شأوا عظيما ، يبدو ذلك من خلال الآثار التي عثر عليها وهي شاهدة على عظمة
 ملكهم .

لقد برعوا في صنع الأواني الزجاجية والفخارية بشكل دقيق مما يدل على قمة حضارتهم ، ناهيك
 عن القصور التي شيدها وكانت آية في الجمال والروعة الفنية والشموخ ، وكانت بديعة بشكل ملفت إذ
 قال فيها بن حمديس :

أعمر بقصر الملك ناديك الذي
 أضحى بمجدك بينه معمورا
 قصر ولو أنك كحلت بدوره

أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

أبصرته فرأيت أبداع منظر

ثم انتنيت بناظري مسحورا

فقد وجدنا في هذه الفترة ازدهار الأدب والشعر أسوة بالمشرق العربي والمغرب العربي ، والأندلس . كما ازدهرت مختلف ألوان العلوم الأخرى . مما يدل على عظمة الدولة الحمادية ومدى أصالة ثقافتها الأصيلة.

فبازدهار الأدب بجميع مناحيه ، ازدهر المصطلح النقدي أيضا ، وهو من طبيعة الحال . إذ كثر في هذا العصر الأدباء والشعراء والنقاد الذين أثروا الساحة النقدية بالمصطلحات الأدبية والنقدية على حد سواء .

ولكن المتمعن في هذه المصطلحات الأدبية والنقدية التي كانت على عهد دولة بني حماد ، لم تكن وليدة الساعة ، إذ كانت تعد امتدادا طبيعيا للحركة الأدبية والنقدية في المشرق العربي . ولذلك من الصعوبة بمكان ، أن نلاحظ خصوصية البيئة في نشوء المصطلح الأدبي أو النقدي ، أو كلاهما معا . مما يجعل استقلالية المصطلح المغربي عن المصطلح في المشرق العربي ، ومدى التبعية له أمرا في غاية الصعوبة ، إذا اعتبرنا جميع العلوم مصدرها الأصلي المشرق العربي ، الذي يعتبر الأصل ، والمغرب العربي الفرع أي الفرع بالنسبة للنسب.

لكن ما يجمعهما ، لا محالة اللغة العربية وقواعدها الثابتة التي لا تتغير بتغير العصور والظروف التي عاشتها الدويلات الإسلامية على مختلف تاريخها الطويل سواء في المشرق العربي أو المغرب العربي أو الأندلس.

ولا ينبغي إغفال، الاجتهادات التي كانت على سبيل التنافس بين مختلف العلماء العرب في ذلك الوقت ، في إيجاد مصطلحات جديدة تعين الظاهرة الأدبية أو النقدية وتحددها تحديدا دقيقا ، من الجانب العلمي ، وقد بلغ الأدب والشعر أوجه في تلك الفترة الزاهرة. فالمصطلح الأدبي والنقدي ، لم يكن يختلف في المشرق العربي عن المغرب العربي ، بل كان امتدادا طبيعيا ، حيث اقتبس المغاربة هذه المصطلحات واستخدموها ، كما سعوا إلى تطويرها من جهة أخرى بما يضيفي عليه من خصوصية معينة.

الهوامش

¹ - تاريخ الجزائر " الميلي ، الجزء الثاني ، ص 166.

- ²- رابح بونار " المغرب العربي " تاريخه وثقافته ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1981، ص 210.
- ³-المرجع السابق، ص 210.

مصادر البحث :

- أبو عبد الله محمد التلمساني " البستان في ذكر أولياء تلمسان" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- أبو العباس الغبريني " عنوان الدراية" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1981.
- عبد العزيز نبوي " الشعر المغربي القديم " ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1983.
- محمد مرتاض " أعلام تلمسان " دار الغرب ، وهران ، الجزائر ، 2004.
- محمد حبار " شعراء الجزائر على عهد الدولة الحمادية" ديوان المطبوعات الجامعية، 1988.
- عبد الحميد حاجيات " أبو هو موسى الزياتي " الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.
- أحمد بن محمد أبو رزاق " الأدب في عصر دولة بني حماد" الشركة الوطنية ، الجزائر، 1979.